واقع اللغة العربية في ظل الاحتكاكات الحضارية

الباحثة حيزية كروش

كلية الآداب واللغات - جامعة حسيبة بن بوعلي/

الشلف الجزائر

مستخلص

من الواضح جدا أن اللغة العربية تمر بأزمة حادة على مستوى الوطن العربي عامة والمجتمع الجزائري خاصة، إذ تزعزع كيانها (اللغة العربية) في كل المجتمعات بشكل ملحوظ، حيث أصبحت كل جماعة تحاول رفع الحرج اللغوي الذي يكاد يمحو معالم العربية من لسان الأمة والجزائر على غرا المجتمعات الأخرى تناوشتها عدة عوامل أهمت في توليد شتات لغوي، "فهي تعيش واقعا لغويا حجا تجسد في صراع لغوي تتجاذه أطراف ثلاثة: العربية الفصحى، والعامية واللغة الفرنسية، وإن كان هذا الصراع من مخلفات الاستعمار الفرنسي الذي عمل على محاربة اللغة العربية وتهميشها، وإحلال الفرنسية بدلا منها، مما اضطر الجزائري لاستعمال العامية للحفاظ على هويته العربية الإسلامية، إلا أن الجزائر مازالت إلى يومنا هذا تعاني من هذا الصراع، فالحديث عن الواقع اللغوي في الجزائر يصطدم بمشكلة كبيرة تتمثل في إهمال اللغة العربية الفصحى، وزحف العامية التي أخذت تتسلل إلى المؤسسات التعليمية والإعلامية والثقافية".

تتميز الجزائر بثنائية متميزة لا يمكن التخلي عن أي طرف منها، فالخريطة اللغوية للسان الجزائري فيها قطبان أساسيان لا غنى عنهما في تتبع الأصالة اللغوية والحفاظ على الهوية الوطنية، هما الأمازيغية لغة الامازيغ والعربية لغة القرآن، "الأولى تثبت تاريخا عريقا للسكان الأصليين وتحدد العرق اللغوي الذي تنحدر منه الألسنة الجزائرية".

أما اللغة الأخرى فهي تمثل الانتماء الديني، وترصد تاريخ الإسلام في الجزائر، فكلا اللغتين تحملان التاريخ الجزائري وتحدد أن الهوية، إلا أن الأرض الواحدة لا يحكمها ملكان، إذ تحدث الغلبة الاعتباطية للغة على أخرى، وهذا ما زاد من تعقد الأزمة اللغوية في الجزائر، فالطفل الأمازيغي يواجه تناقضا لغويا يوقعه في شرك التهجين، ويفقده القدرة على التحكم في نظامه اللغوي، كونه لا يعرف اللغة العربية الفصحى التي يبدأ بها من اول يوم يدخل فيه إلى المدرسة، فهي رغم عدم غرابتها عنه لأنها لغة المسجد والراديو والسلطة، إلا أنه يواجه مشاكل في إتقانها، وهذا المشكل يتفاقم لديه كونه يتعلم لغة اجنبية أخرى بعد فترة غير كافية لترسيخ اللغة العربية لديه، وهنا تظهر إشكالية التعدد اللغوي، دون اكتساب أي من اللغات.

لذا جاء هذا البحث ليعالج هذه الاشكالية ويضع الحلول المناسبة لهذه المشكلات.

المقدمة

تتجسد كينونة اللغة العربية من خلال الاستعمال السليم، وفق نسق تداولي مضبوط يضمن الحفاظ على القالب اللغوي الأصيل، المعبر عن الواقع الأنثربولوجي الذي يلقي مزيدا من الضوء على اللغة العربية، بأبعادها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، لكي تفهم الميكانيزمات المنتجة للخطاب اللغوي المنطوق بالعربية، ومن الملاحظ تلك التشتتات اللهجية التي تعاني منها العربية الناتجة عن أزمة التعدد مما أدى إلى خرق السياج اللغوي العربي فتداخلت اللغات واللهجات مع اللغة الأم (العربية) بجملة من الألفاظ والعبارات المقتحمة لأحشاء الخطاب العربي، (فرنسية إنجليزية، إضافة إلى اللهجات المتناثر في الأقطار العربية التي طوقت الكلم الفصيح)

وعليه فإن مشكلة العربية واقع لا مفر منه، يتطلب إعادة الحسابات، وضع البيداغوجيات المناسبة، والبحث عن الحلول ذات المنعكسات الدياكرونيكية والسانكرونيكية، التي ترصد التطورات المتلاحقة والطارئة على اللغة العربية "حيث تفشت ظواهر لسانية متعددة ومتنوعة في المجتمع الواحد، بين ازدواجية وثنائية وتعددية لغوية، مع ماتعنيه من خلط بين العربية الفصحى واللهجات العامية (أو الدارجة)، واستعمال الألفاظ والتعبيرات الأجنبية الدخيلة في السياقات الكلامية وحتى في الكتابة"[١].

الأمن اللغوي أصبح من بين الأهداف الدولية التي أصبح توفيرها أمرا بالغ الصعوبة، نظرا للتراجع اللغوي الذي عرفته المجتمعات العربية، فقد طغى البذخ المصطلحي، وكثرت الصراعات اللهجية، لتتقد حرب لسانية تمحو معالم الهوية العربية، من خلال النزعات المستوياتية (صوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية، ومعجمية)، فلا يمكن غض النظر عن عولمة الاتصال الغوي الذي شابته تطورات العصر، وتداعيات اللغات الأخرى حول العالم، "وهو ما آل إلى ضرب من صراع النفوذ اللغوي فإذا اعتبرنا فعلا أن العالم يشهد اليوم حربا بين اللغات فلإن العالم متعدد"[٢].

من الواضح جدا أن اللغة العربية تمر بأزمة حادة على مستوى الوطن العربي عامة والمجتمع الجزائري خاصة، إذ تزعزع كيانها(اللغة العربية) في كل المجتمعات بشكل ملحوظ، حيث أصبحت كل جماعة تحاول رفع الحرج اللغوي الذي يكاد يمحو معالم العربية من لسان الأمة والجزائر على غرا المجتمعات الأخرى تناوشتها عدة عوامل أهمت في توليد شتات لغوي، "فهي تعيش واقعا لغويا حجا تجسد في صراع لغوي تتجاذه أطراف ثلاثة: العربية الفصحى، والعامية واللغة الفرنسية، وإن كان هذا الصراع من مخلفات الاستعمار الفرنسي الذي عمل على محاربة اللغة العربية وتهميشها، وإحلال

الفرنسية بدلا منها، مما اضطر الجزائري لاستعمال العامية للحفاظ على هويته العربية الإسلامية، إلا أن الجزائر مازالت إلى يومنا هذا تعاني من هذا الصراع، فالحديث عن الواقع اللغوي في الجزائر يصطدم بمشكلة كبيرة تتمثل في إهمال اللغة العربية الفصحى، وزحف العامية التي أخذت تتسلل إلى المؤسسات التعليمية والإعلامية والثقافية"(٣).

وعليه فإن الاستعمال اللغوي الذي روّض عليه اللسان الجزائري لم تكن فيه مراعاة للعربية الفصيحة، إذ لهجت وأقحمت فيها لغات دخيلة، أفسدت بناء العربية، وهلهلت فصاحة الجزائريين لتخلق لغة هجينة، أو ماتسمى باللغة الدارجة، تخالف قواعد العربية إلى حد بعيد، فالمستكنه للهجة الجزائريين يجد نوعا من النحت السوقي غير الخاضع لتقنين لغوي يضمن سلامة العربية، ومن الواضح جدا شيوع الفرنكفونية وغيرها من التيارات اللغوية التي تحمل لواء اللغات الأجنبية المستعمرة للأقاليم اللغوية في بلدان المغرب العربي والمشرق وأغلب دول العالم الثالث.

"اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأجنبية أساسية لتطور حضارتنا، فالحداثة منفتحة على زمنية كونية، هي زمن الإنسان نفسه بكل لغاته، ولكننا نريد أن نعيش الحداثة بعيوننا، كما تتحقق في اللغة، ولتتعلم الذات كيف ترى وتبدع من خلالها"(٤)،أي أن اللغة تخضع لهيمنة الحضارة والعولمة والتطور التكنولوجي، مما يزيد من الحاجة لاختراع مسميات جديدة تناسب المبتكرات الجديدة، لكن لابد من منهجة الإقحام العشوائي للغات وضبط الانفتاح الحضاري .

يشير الواقع إلى معاناة المجتمع الجزائري من تعددية لغوية، تصعب على المتلقي من خارج الخريطة اللغوية الجزائرية نسب هذه اللهجة (فرنسة، أم عربية، أم أمازيغية؟)، وتعد الجزائر "واحدة من الأراضي اللغوية التي استقطبت اهتمام الباحثين، وذلك لكونها نسيجا لغويا متشابكا، يتفتح على نطاق متعدد اللغات ومتمايز الثقافات"(٥)، إلا أن الواقع اللغوي الجزائري يؤكد فش الجزائريين في توحيد اللسان.

يمكن القول أن العربية تحتضر في حضن المجتمع الجزائري مادام هذا الأخير عاجزا عن تفعيل المعجم العربي في طبائعه الاجتماعية التي تصوغ أفكاره جراء عقدة لغوية تبث في نفسية بعض الفئات الجزائرية فكرة ساذجة مفادها أن التواصل والتعامل باللغة العربية دليل على التخلف.

على الرغم من الاستقلال إلا أن الجزائر لا تزال تعاني من المخلفات اللغوية للاستدمار الفرنسي فقد لغم المجتمع الجزائري بمعجم فرنسي هو أكثر استعمالا وتداولا من قبل الجزائريين، حيث أصبح الحديث باللغة الفرنسية مرتبطا بالحداثة والتطور بحسب بعض الذهنيات الجزائرية، على اعتبار

أن من يجيد اللغة الفرنسية، هو المواكب للعصر والمثقف والمتمدن...إذن اللهجة الجزائرية "عمران معقد تشتمل طوابقه على ثروة لسانية يكتنفها الغموض"(٦).

إلا أن الجبروت الفرنسي تسبب في تقهقر اللغة العربية في الجزائر، فالاستعمار سعى إلى" تدمير البنية الثقافية العربية الإسلامية، مع محاولة قسرية قهرية تفرض اللغة الفرنسية بشتى الطرق، وكانت أشد قسوة في فرضها على الجزائر ونجحت أحيانا في تشكيل طبقة من النخبة التي اتخذت الفرنسية لغة سياسية، ثقافية وبراجماتية لحماية مصالحها"(٧).

لا جرم أن اللغة العربية الفصيحة هي اللغة الرسمية في الجزائر، ولكن مادامت لا تستعمل إلا في المؤسسات التعليمية وبعض السياقات المحدودة والخاصة، فإن اضمحلالها وارد بينما تفرض الفرنسية كيانها من خلال التواصل والاستعمال اليوميين، فهذا التناوب في الاستعمال بين النظامين العربي والفرنسي أربك اللغة الأم (اللغة العربية).

يتعزز الاتجاه الفرانكفوني على حساب اللغة العربية، فتتفشى الفوضى اللغوية، القائمة على استراتيجيات مناهضة للغة العربية، ومتمادية في فرض أنظمتها على البناء اللغوي العربي، وغالبا مانجد هذه السيطرة في الإدارات والتعاملات المؤسساتية التي تكرس كل الوسائل لتداول المصطلحات المعربة واستعمال اللغة الفرنسية، وهذا مازاد من محدودية انتشار اللغة العربية وانحصارها في المجال الأكاديمي.

هنالك عبارة شائعة في المجتمع الجزائري، تثبت مرض اللغة وتدهورها، وعجز اللسان الجزائري عن استدراك عجزه اللغوي ألا وهي: "المهم الفكرة"، وهذه العبارة نتيجة حتمية لتصادم الأنظمة اللغوية المختلفة، فلكل نظام معياريته التي تجعله غير قادر على التكيف مع الأنظمة الأخرى، وبالتالي ينتج خطاب لغوي مفكك الشفرات، مسببا خللا في الرسالة اللغوية، فلايفهم المتلقي الدلالة المقصودة، وبذلك تحدث مذبحة اللغة العربية على يد أبنائها.

تتميز الجزائر بثنائية متميزة لا يمكن التخلي عن أي طرف منها، فالخريطة اللغوية للسان الجزائري فيها قطبان أساسيان لا غنى عنهما في تتبع الأصالة اللغوية والحفاظ على الهوية الوطنية، هما الأمازيغية لغة الامازيغ والعربية لغة القرآن، "الأولى تثبت تاريخا عريقا للسكان الأصليين وتحدد العرق اللغوي الذي تنحدر منه الألسنة الجزائرية"(٨).

أما اللغة الأخرى فهي تمثل الانتماء الديني، وترصد تاريخ الإسلام في الجزائر، فكلا اللغتين تحملان التاريخ الجزائري وتحدد أن الهوية، إلا أن الأرض الواحدة لا يحكمها ملكان، إذ تحدث الغلبة الاعتباطية للغة على أخرى، وهذا ما زاد من تعقد الأزمة اللغوية في الجزائر، فالطفل الأمازيغي

يواجه تناقضا لغويا يوقعه في شرك التهجين، ويفقده القدرة على التحكم في نظامه اللغوي، كونه لا يعرف اللغة العربية الفصحى التي يبدأ بها من اول يوم يدخل فيه إلى المدرسة، فهي رغم عدم غرابتها عنه لأنها لغة المسجد والراديو والسلطة، إلا أنه يواجه مشاكل في إتقانها، وهذا المشكل يتفاقم لديه كونه يتعلم لغة اجنبية أخرى بعد فترة غير كافية لترسيخ اللغة العربية لديه، وهنا تظهر إشكالية التعدد اللغوي، دون اكتساب أي من اللغات .

إن هذا اللاتمركز في تعلم واستعمال اللغة يجعل المتكلم تائها بين تراكيب الكلام، فيتلعثم ويتحرج من استعمال الرسائل اللغوية، ويدخل اللغة في دوامة التعددية ويضيّعها بين صيرورة التعريب وصيرورة التمزيغ لتعمق الفجوة في الانظمة اللغوية العربية، ويضيق الخناق عليها فتتعرض لحتمية التغير.

الكلمات المفتاحية: التعدد اللغوي، التداخل اللغوي، واقع اللغة العربية، اللهجة، الفصحى، اللغة الأعجمية.

الإشكاليات: ما ماهية التعدد اللغوي؟ وما هي تجلياته؟ وبماذا يمكننا توصيف واقع اللغة العربية في الجزائر؟ هل مرحلة تأزم أم مرحلة تطور؟

هوامش البحث ومصادره:

(١) الحبيب النصراوي، في الازدواجية اللغوية والهوية العربية، مجلة الإذاعات العربية ع٤، ٢٠١٣، ص٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٩.

(٣) نصيرة زيتوني، واقع اللغة في الجزائر، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنساني)، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة جائل، السعودية، مج٢٧، ع١٠، ٢٠١٣، ص١.

(٤) سعيد بن كراد، ملاحظات حول اللغة –لماذا لا يمكن اعتماد الدارجة أداة للتدريس، ص٦.

(٥) فتيحة شيخ، التأثيران الفرنسي والأمريكي في الخطاب الروائي "نجمة" عند كاتب ياسين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير إشراف: عبد القادر شارف، كلية الأدب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حسيبة بن بوعلي، الجزائر، ٢٠١١-٢٠١٢، ص٢.

(٦) المرجع السابق،ص٠٣.

(٧) عز الدين المناصر، الهويات والتعددية اللغوية، دار مجدلاوي، عمان الأردن، ط١، ٢٠٠٤، ص٣٢٥.

(٨) ينظر: محمد بودهان، في الهوية الأمازيغية للمغرب، منشورات تاويزا–٥–، ط٢، ٢٠١٣، ص١٦.